الفصل الأول

الإنسان .. خلقه وتطوره

خلق الانسان :

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا • انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا • انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (الانسان : ١ ــ ٣) •

هذا الاستهلال انما هو للتقرير ، ولكن وروده فى هذه الصيغة كأنما ليسأل الانسان نفسه : ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ؟ ثم ألا يفعل تدبرها فى نفسه شيئا من الشعور باليد التى دفعته الى مسرح الحياة وسلطت عليه النور ، وجعلته شيئا مذكورا ؟ •• انها ايحاءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام فى هذا المقام • وهى ايحاءات رفيقة وعميقة تثير فى النفس تأملات شتى :

فواحدة منها تتجه بالنفس الى ما قبل خلق الانسان ووجوده ابتداء • يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الانسان • كيف تراه كان ؟ •• والانسان مخلوق مغرور فى نفسه وفى قيمته ، حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأزمان طوال • ولعل هذا الكون لم يكن يتوقع خلق شىء يسمى « الانسان » •• حتى انبثق هذا الخلق من ارادة الله فكان ! ••

وواحدة منها تتجه الى اللحظة التى انبثق فيها هذا الوجود الانسانى ، وتضرب فى تصورات شتى لهذه اللحظة التى لم يكن يعلمها الا الله ، والتى أضافت الى الكون هذه الخليقة الجديدة ، المقدر أمرها فى حساب الله قبل أن تكون ، والمحسوب دورها فى خط هذا الكون الطويل ••

وواحدة منها تتجه الى تأمل يد القدرة وهى تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجـــود وتعد لدوره ، وتعد له دوره ، وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ، وتهيىء له الظروف التى تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنا وميسورا ، وتتابعه بعد ذلك فى كل خطوة ، ومعها الخيط الذى تشده به اليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير ..

وايحاءات كثيرة وتأملات شتى ، يطلقها هذا النص فى الضمير .. ينتهى منها القلب الى الشعور بالقصد والغاية والتقدير ، وفى المنشأ وفى الرحلة وفى المصير ..

فأما امتداد هذا الانسان بعد ذلك وبقاؤه ، فكانت له قصة أخرى :

« انا خلقنا الانســـان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلنـــاه ســـميعا بصيرا » ..

فالأمشاج هى الأخلاط .. وربما كانت هذه اشارة الى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعنى الوراثـــات الكامنة فى النطفة ، والتى يمثـــلها ما يسمى علميـــا « الجينات » ، وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الانسان أولا ولصفات الجنين العائلية أخيرا . واليهـــا يعزى سير النطفة الانســـانية فى رحلتها لتكوين جنين انسان ، لا جنين أى حيوان آخر . كما تعزى اليها وراثة الصفات الخاصة فى الأسرة .. ولعلها هى هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى .

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج ، لا عبثا ولا جزافا . وانما خلق ليبتلى ويمتحن ويختبر . والله سبحانه وتعالى يعلم ما هو ؟ وما اختباره ؟ وما ثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود ، وأن تترتب عليه آثار المقدرة فى كيان الوجود ، وأن تتبعه آثار المقدرة ، ويجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه .

ومن ثم جعله سميعا بصيرا .. أى زوده بوسائل « الادراك » ، ليستطيع التلقى والاستجابة ، وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليهـــا ويختار ، ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار .

واذن فان ارادة الله فى امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التى قدرهـــا ، وهى خلقته من نطفة أمشاج .. كانت وراءها حكمة .. كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره .. ومن ثم وهب الاستعداد

« المتلقى والاستجابة » و « المعرفة » ، و « الاختيار » .. وكان كل شيء فى خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه فى الحياة .. بمقدار !

ثم زوده الى جانب المعرفة ، « بالقدرة على اختيار الطريق » ، وبين له الطريق الواصل ، ثم تركه ليختاره ، أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طريق لا تؤدى الى الله « الخير والشر » :

« انا هديناه السبيل ، اما شاكرا واما كفورا » ..

وعبر عن الهدى بالشكر ، لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدى ، بعد اذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا ، فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا .. فوهب له السمع والبصر ، وزوده بالقدرة على المعرفة ، ثم هداه السبيل ، وتركه يختار .. الشكر هو الخاطر الأول الذى يرد على القلب المؤمن فى هذه المناسبة ، فاذا لم يشكر فهو الكفور .

ويشعر الانسان بجدية الأمر ودقته بعد هذه اللمسات الثلاث : ويدرك أنه مخلوق لغاية ، وأنه مشدود الى محور ، وأنه مزود بالمعرفة فمحاسب عليها ، وأنه هنا ليبتلى ويجتاز الابتلاء . فهو فى فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لا فترة لهو واهمال ! ويخرج من هذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرفيقة العميقة . كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجد والوقار فى تصور هذه الحياة ، وفى الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هذه الآيات الثلاث القصار من نظرته الى غاية وجوده ، ومن شعوره بحقيقة وجوده ، ومن أخذه للحياة وقيمتها بوجه عام(١) .

ويذكر مختصر تفسير « ابن كثير »(٢) أن الله تعالى يقول مخبرا عن الانسان : أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئا يذكر لحقارته وضعفه . فقال تعالى : **« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا »** ؟ ، ثم بين ذلك فقال جل جلاله : **« انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج »** أى أخلاط ، والمشج والمشيج هو الشيء المختلط بعضه

---

(١) سيد قطب ، **فى ظلال القرآن** . (بيروت : دار الشروق ، ١٩٧٩) ، ج ٦ ص ٣٧٧٩ ، ٣٧٨٠ .

(٢) محمد على الصابونى ، **مختصر تفسير ابن كثير** ج ٣ (بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٣٩٣ هـ) ، ص ٥٨٠ ، ٥٨١

فى بعض ، والأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة • وقوله تعالى : « **نبتليه** » أى نختبره ، « **فجعلناه سميعا بصيرا** » أى جعلنا له سمعا وبصرا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية • وقوله جل وعلا : « **انا هديناه السبيل** » أى بيناه ووضحناه وبصرناه به ، كقوله جل جلاله : « **وهديناه النجدين** »(١) أى بينا له طريق الخير وطريق الشر ، فهو فى ذلك اما شقى واما سعيد ، كما جاء فى الحديث الشريف : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو معتقها »(٢) ومن رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا »(٣) • وروى الامام أحمد ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من خارج يخرج الا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فان خرج لما يحب الله أتبعه الملك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع الى بيته ، وان خرج لما يسخط الله أتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع الى بيته »(٤) •

* * *

مفاهيم نفسية :

بعد هذا الاستهلال المأخوذ من كلام الخالق سبحانه وتعالى ، وما أوردناه من تفسير ، يبدو من المفيد أن نستخلص أهم المفاهيم النفسية التى ناقشها المفسرون مثل : النمو والتطور ، والادراك ، والمثير والاستجابة ، والمعرفة •

أولا ــ النمو والتطور :

ما زال استخدام مفاهيم مثل النضج والرعاية والتطور والنمو بعيدا عن أن يكون مقننا تماما • والمعادلة الآتية :

النضج × الرعاية = التطور

---

(١) البلد : ١٠

(٢) رواه مسلم من حديث ابى مالك الأشعرى •

(٣) أخرجه الامام أحمد •

(٤) أخرجه الامام أحمد •

سوف تساعد القارىء على التمييز بين هذه المصطلحات التى سنقوم بشرحها(١) ..

١ ــ النضج :

يشير لفظ « النضج » الى تفتح صورة وراثية الأصل بالضرورة ، ومن ثم يقتصر النضج على مراحل التعاقب والأنماط الفطرية التى ليس لأى مؤثر خارجى سلطان عليها . ويتضمن حقيقة مؤداها أن الجهاز العصبى يمهد فى أغلب الأحوال لظهور الوظائف الجديدة ، أو بمعنى آخر أن البيئة لا تخلق الوظيفة . فالعوامل الداخلية هى التى تضمن التقدم ، أما البيئة فتساند التغيرات ولكنها لا تولدها . وبهذا تتحقق وراثة خصائص الجنس عن طريق النضج .

وتعتبر التغييرات المتضمنة فى النضج مقدمات ضرورية ولازمة للكثير مما يقوم به الكائن الحى . مثال ذلك : أن القدرة على انتصاب القامة والمشى لابد أن تكون مسبوقة بكثير من التغيرات فى التكوينات الكبرى مثل نسبة الساق الى الجذع ، وانتقال مركز الثقل ، ثم حدوث التحكم فى أجزاء الجسم المختلفة . وكل هذه التغيرات تتطلب التعاون بين الطبيعة والرعاية ، وان كانت الطبيعة هى الأسبق وهى التى تضع الحدود والقيود ، كما أنها فى الواقع هى التى تصر على وجود البيئة وتتطلبها عند الحاجة اليها . وعملية النضج محتومة لدرجة أنها قد تتم على حساب الحياة ذاتها عندما تكون البيئة قاصرة .. فاذا وضعنا للطفل نظاما غذائيا يكفى لمجرد سد حاجات البقاء الساكنة الحالية فانه يزداد طولا ولكنه قد يفارق الحياة ، أو بعبارة أخرى أن نموه من حيث الطول سيستمر ، فى حين يتناقص وزنه وقدرته على النشاط العادى .

ويستخدم مصطلح « اكتمال النضج » أحيانا بمعنى بلوغ مرحلة معينة من التطور ، وهو أيضا حصيلة قوى النضج والرعاية ، ويتضمن غالبا فكرة اكتمال مرحلة والتهيؤ للمرحلة التالية . ولذا يوصف الطفل بأنه غير مكتمل النضج اذا ولد قبل أن يكون قد تهيأ لمواجهة بيئته الخارجية . ويقال ان الشخص مكتمل النضج اذا ما حقق المطالب الاجتماعية لسنه ، وغير مكتمل النضج اذا لم يستطع ذلك .

---

(١) ويلارد أولسون ، **تطور نمو الأطفال** (ترجمة باشراف د/ عبد العزيز القوصى) . (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٦٢) ، ف ٢ .

٢ ــ الرعايــة :

من المألوف استخدام لفظ « الرعاية » بمعناه الواسع ، بحيث لا يشمل التغــذية فحسب ، وانما يشــمل أيضا شتى الخبرات المعقدة التى نتطلبها فى التربية والتنشئة الاجتماعية • فالكائن الحى فى تفاعل مستمر مع بيئته ، وحصول الفرد على قدر ميسور من الطعام يكفى للنمو الجسمى الملائم ، وعلى طائفة من الخبرات المنوعة المناســبة للنمو الاجتماعى والعقلى ، يعتبران من المواطن الرئيســية لاهتمــام المجتمع • والبيئة الصالحة ينبغى أن تتضمن كل ضروريات النمو الأمثل •

ويطلق لفظ « التطور » على تلك الحصيلة المعقدة لقوى النضج والرعاية كما سبق وصفهما • فاذا لم تتيسر الرعاية الملائمة فان التطور لا يتحقق ، ويستحيل حدوث أمور معينة مثل زيادة الحجم واكتساب المهارات الجسمية والقدرة على الكلام •

٣ ــ النمو :

تستخدم كلمة « النمو » لقياس التطور •• فالنمو يتعلق بالتغير فى الحجم والتعقد والتناسب وبسائر التغيرات الكيفية كالتى تطرأ على العضلات والعظام والشعر ولون البشرة وما أشبه • والنمو بمعنى الزيادة هو الذى ينطبع أكثر من غيره فى ذهن من يلاحظ الأطفال ملاحظة عرضية ، ويرجع ذلك الى شدة وضوح التغير فى طول القامة والوزن بمرور الزمن • ولكن النمو يتضمن أيضا التغيرات الداخلية مثل انقسام الخلايا الذى يجعل الجنين أكثر تعقيدا دون أن يزداد حجما ، كما يشمل التغير بمعنى النقص مثل نقص السعرات الحرارية التى يستهلكهــا الفرد بالنسبة لوحدة الوزن كلما تقدمت به السن •

والى جانب استخدام لفظ النمو لوصف التغيرات فى تكوين الجسم ووظائف الأعضاء فانه ينطبق أيضا على السلوك • ومن ثم فان تقدير التطور الحركى مثل الحبو والوقوف والمشى والجرى يعتبر جانبا من جوانب دراســة النمو • وكذلك فان التغيرات التى تطرأ على قدرة الطفل من حيث تعامله مع غيره فى الأسرة والمجتمع قد توصف باسم « النمو الاجتماعى » • والفرق بين اطلاق العنان لنوبات البكاء وسورات الغضب فى الطفولة المبكرة وبين ازدياد التحكم الذاتى الذى يظهر بالتقدم فى السن يعتبر دليلا على « النمو الانفعالى » • ولكى تكمل الصورة لابد

أن تتضمن النظرة الى النمو أيضا « النمو العقلى » ، مثل القدرة على القيام بالأعمال الذهنية المجردة وتحصيل المعلومات واكتساب المهارات فى المواد الدراسية .

ومن الممكن أن نتكلم بكثير من الثقة عن بعض صور « التعاقب » التى تحدث فى تطور النمو . فما لم نتخذ اجراءات عنيفة لتغيير التعاقب نجد أن الطفل يجلس قبل أن يقف ، ويقف قبل أن يمشى ، ويمشى قبل أن يجرى ، كما أنه يتكلم قبل أن يصبح قادرا على القراءة ، ويقرأ قبل أن يكون فى وسعه اتقان الهجاء ، كما أن قدرته على القراءة تسبق فى تطورهـــا قدرته على الكتابة .

* * *

ثانيا ــ الادراك والتفكير :

تتضمن لغة « التفكير » كثيرا من التعبيرات المجازية المشتقة من لغة « الادراك » مما يوحى بنوع من التشابه بين التفكير والادراك . ومن هذا التشابه المجازى قولنا : نظر فى المشكلة ، ورأى النور ، وكشف عن وجه الحقيقة ، وينفذ ببصره فى الموضوع ، ويلمس نقطة هامة أو يبرزها ، ويزيد الأمر جلاء ووضوحا وغير هذا من لغة التفكير . والواقع أن هذا التشابه المجازى هو انعكاس لتشابه أعمق بين الادراك والتفكير . ومن بين الدارسين والباحثين فى علم النفس من أكد القوانين الأساسية التى يخضع لها الادراك هى ذات القوانين التى يخضع لها التفكير .

فشيوع أو انتشار الصور المجازية من التعبير عند الحديث عن التفكير والادراك ليس من قبيل الصدفة لأن التفكير والادراك متداخلان ، ومن الممكن أن نحدد ثلاثة جوانب لهذا التداخل(١) :

الأول : اذا كان التفكير يعنى ما يفكر فيه الناس أو ما ينتهون اليه ، فمن المؤكد أن أفكارنا كثيرا ما تكون أفكارا عن أشياء مدركة .

الثانى : أن التفكير يعنى أيضا حل المشكلات والحكم على الأمور والمواقف . وكثيرا ما تكون المشكلة مكانية تتضمن ادراك علاقات أو الحكم

---

(١) سيد أحمد عثمان ، فؤاد عبد اللطيف ابو حطب ، **التفكير : دراسات نفسية** . (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٧٨) ، ف ٦ .

على مساحة أو حجم • ونحن لا نستطيع أن نفهم حل المشكلات من هذا النوع الا اذا فهمنا العمليات الادراكيه التى عن طريقهـا تنتج مواد التفكير •

الثالث : أن التشابه بين عمليات الادراك وعمليات التفكير بصرف النظر عن مادة التفكير أو محتواه ، أى أن هناك تشابه وظيفى بين التفكير والادراك •

والاحساس هو الخطوة الأولى للادراك السليم • ولكن الادراك ليس مجرد مجموعـة أحاسيس ، بل هو أكثر من ذلك • فالاحساس هو الخطوة الأولى فى طريقنا لمعرفة العالم الخارجى ، ولكن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد • فالانسان لا يقف من هذه الاحساسات موقفا سلبيا ، بل يتناولهـا بالتفسير والتأويل ويضيف اليها من خبراته السابقة ما يحيلها الى معان ورموز •

فالاحساس هو النتيجة المباشرة لاثارة أعضاء الحس : صوتا أو خبرة بصرية أو لمسـا أو شما • وهذه المعلومات التى يتوصل اليها الفرد عن طريق الاحساس ليست بذات نفع أو قيمة الا اذا قام بتفسيرها • فقد يسمع أحد الأشخاص صوتا ما ، ولكنه يظل مجرد ضوضاء حتى يتعلم كيف يوحد بينه وبين رنين جرس الهاتف ، أو بينه وبين هواء قط • أما الادراك فهو الربط بين ما يحسه المرء ببعض خبراته المـاضية حتى يعطى للاحساس معنى(١) •

* * *

ثالثـا ــ المثير والاستجابة :

نادى أصحاب نظرية « المثير والاستجابة » بأن الشخصية ليس لها بناء ثابت دائم ، وأن « السمات » ما هى الا صفات سلوكية موقفية ، أى تتوقف على المواقف الخاصـة التى تعرض للفـرد ، وليس على استعدادات ثابتة لديه • فليست هناك اذن سمات عامة اطلاقا ، بل توجد مجموعة من « العادات » النوعية ، هى عبارة عن روابط خاصة بين « مثيرات » معينة من ناحية و « استجابات » متعلقة بها من ناحية

---

(١) دوبولد فان دالين ، **مناهج البحث فى التربية وعلم النفس** (ترجمة باشراف د / سيد أحمد عثمان . ط ٢ (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٧) ، ص ٨٨ ، ٨٩ •

أخرى .. فلا معنى اذن لأن نقول ان فلانا « أمين » أو « خجول » أو « منطوى » أو « منبسط » بوجه عام .

وعلى هذا الأساس يكون التنبؤ بسلوك الفرد محدود بمعرفة شروط كثيرة ، منها الموقف نفسه الذى يتصرف بازائه ، وليس مجرد معرفة « سمات » عامة ثابتة عنده ، اذ أن السمات ليست صفات فى الفرد ولكنها صفات للسلوك الذى يصدر عند الفرد فى مواقف خاصة . فاذا سلك شخص مثلا بشكل عدوانى فى موقف أو مواقف معينة ، فان كل ما نستطيع أن نستنتجه من هذا أنه سوف يسلك على هذا النحو فى نفس المواقف أو فى مواقف مشابهة . وبقدر ما يكون هنالك من تشابه بين المواقف المختلفة بقدر ما يكون هناك من احتمال ظهور السلوك على نفس النمط .

ومن أهم تطبيقات هذه النظرية ما قام به « ميللر » و « دولارد » Miller and Dollard (١) من بحوث وخرجا به من آراء ونظريات فى مجال التعلم والشخصية والعلاج النفسى(٢) .

* * *

رابعا ــ المعرفة :

تتميز المشكلات التى يواجهها الانسان بأنها حلقات فى عملية معقدة من التكيف والتوافق مع الظروف المتغيرة . واذا كانت المشاكل التى يواجهها الحيوان هى مشكلات مكانية تتطلب مثلا تحديد مواضع وأشياء فى البيئة ، أو معالجة الأشياء ، أو التحرك والتنقل من مكان لآخر ، فان ذلك يرجع فى جوهره الى أن الحيوان يتعامل مع مثيرات مادية مباشرة .

ولكن البيئة التى ينشط فيها الانسان أكثر تنوعا .. فالسلوك الانسانى لغوى فى أسبابه . يقول الله تعالى : « **وعلم آدم الأسماء كلها** » (البقرة : ٣١) . ويعتمد الانسان على تلك الظاهرة الاجتماعية التى تسمى اللغة ، وهى نمط السلوك الرمزى الذى يتضمن الاشارة الى الأشياء والأفكار والمعانى والمشاعر والانفعالات والاتجاهات والقيم . كما أن اللغة هى وسيلة الانسان فى انتقال العالم الخارجى اليه . وهى

---

(١) J. Dollard. and N. Miller : Personality and Psychotherapy. (New York : Mc. Graw — Hill, 1950).

(٢) محمد عماد الدين اسماعيل ، **الشخصية والعلاج النفسى** (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩) ، ف ٦

وسيلته أيضا فى الاضافة الى التراث الفكرى والعلمى والثقافى والحضارى •

والواقع أنه يكفى هذا الفرق بين الانسان وغيره من المخلوقات الحية كى يصبح الفرق سلوكيا بين الانسان وغيره من الكائنات ، فرق فى الكيف وليس فى الكم ، وفرق فى النوع وليس فى الدرجة ، وفرق أصيل يجعل الانسان فئة سلوكية والحيوان فئة سلوكية أخرى • أضف الى ذلك ما تيسر للانسان من قدرات عقلية ونشاط معرفى يتمثل فى الادراك والتعلم والتذكر والتفكير بأنواعها وأنماطها وفئاتها المختلفة ، وتشمل هذه جميعا ما نسميه « العمليات المعرفية » •

وأساس هذه التسمية فى اطار علم النفس الحديث : أن هذه العمليات تعتمد فى جوهرها على عملية « المعرفة » • وأفضل تعريف لهذه العملية ما يقترحه « جيلفورد »(١) من أنها « تشمل الوعى بالمعلومات واكتشافها اكتشافا مباشرا ، أو اعادة اكتشافها ، أو التعرف عليها ؛ وتشمل بذلك عمليات التعلم والذاكرة » •

وان كان البعض يرى أن يمتد هذا المفهوم ليشمل عمليات التفكير جميعا(٢) •

ويبدو من المفيد فى هذا المجال أن نناقش عملية « التعلم » فى عجالة سريعة •

الواقع أن أكثر ما يصدر عن الناس من سلوك يمكن اعتباره نتيجة تعلم سابق ، اذ أن الوراثة البيولوجية وحدها لا تكفى ولابد أن يتم التفاعل بين الفرد والبيئة تفاعلا يهتدى الانسان خلاله ويتعلم أثناءه أكثر ما يصدر عنه من سلوك فيما بعد • كذلك يلاحظ أن التعلم يشتمل على أنواع متفاوتة •• فاننا نتعلم لهجة الحديث ، والقدرة على استخدام الأشياء ، كما نتعلم كيف نثق بأنفسنا ، وأن نستمع الى الناس ونتحدث اليهم •

---

(١) J. Guilford; The Nature of Human Intelligence. (New York : Mc. Graw — Hill, 1967), P. 203

(٢) سيد أحمد عثمان ، فؤاد عبد اللطيف أبو حطب ، المرجع السابق ، ف ٢ •

ويمكن تقسيم عملية التعلم الناتج خلال اشباع الفرد لحاجاته الى الأقسـام الآتيـه :

١ ـ العادات والمهارات •
٢ ـ المعلومات والمعانى •
٣ ـ السلوك الاجتماعى •
٤ ـ السلوك الذى يتميز به بعض الأفراد عن غيرهم •

وقد روعى فى هذا التقسيم مضمون الشىء المتعلم ، دون الطريقة التى تم بها التعلم(١) •

« والتعلم هو تغير فى الأداء » • وهذا التعريف اجرائى ، لأنه يحدد لنا مفهوم التعلم ، كما نلاحظه وكما نقيسه فى الشروط التجريبية ، أو فى المواقف التعليمية المختلفة(٢) •

و « التعلم » هو تعديل السلوك عن طريق الخبرة والممارسة • ويدل هذا على أن التغيرات التى تطرأ على الأداء تحدث أثناء عملية اشباع الدوافع وبلوغ الأهداف •• وكثيرا ما يقوم التعلم فى صوره المركبة على عملية حل المشكلات • فهو يحدث عندما تعجز الطرق القديمة والأساليب العـادية عن التغلب على الصعاب أو عن مواجهة الظروف والمواقف الجديدة • ومن ثم يصبح التعلم عملية تكيف للمواقف الجديدة(٣) •

ان التعلم عملية معقدة ، وتستغرق حياة الفرد بأكملها ، وتشمل أنواعا مختلفة من النشاط والخبرات المتعددة بتعدد مواقف الحياة • لذلك كان من الصعب أن نضع لها تعريفا شاملا جامعا يتفق عليه علماء النفس جميعهم اتفاقا تاما (٤) •

---

(١) مصطفى فهمى ، **علم النفس : أصوله وتطبيقاته التربوية** (القاهرة ، الخانجى ، ١٩٧٥) ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣ •

(٢) أحمد زكى صالح ، **التعلم : أسسه ونظرياته** • (القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩) ، ص ١١ •

(٣) جيتس وآخرون (ترجمة باشراف د / عبد العزيز القوصى) ، **علم النفس التربوى** • (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط ٣ ، ١٩٦٠) ، ج ٦ ، ص ٥ •

(٤) رمزية الغريب ، **سيكولوجية التعلم** • (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٥٩) ، ص ١٢ ، ١٣ •

وفى ختام هذه المناقشة للمفاهيم النفسية السابقة ، قد يبدو من المفيد أن نذكر أهم المبادىء الأساسية التى تؤثر على نمو الانسان وتطوره وسلوكه ، والتى تتلخص فى الآتى :

١ ــ **جوهر الحياة برمتها هو التغير** : فكل كائن حى يوجد فى حالة تفاعل دائم مع البيئة ، وهذه العلاقة وثيقة ، لدرجة أن بعض البيولوجيين يؤكدون أن الكائن الحى والبيئة وحدة لا انفصـــام لها ، أو على الأقل لا يمكن عزل بعضهما عن البعض الآخر ، وأنه من خلال تفاعل الكائن الحى مع البيئة يتغير الفرد ويتعدل سلوكه كليـــا أو جزئيا ، وفى الوقت نفســـه يغير الظروف الخارجية التى يتفاعل فيـــها • وهذه الظروف الخارجية المتغيرة تقوم بدورها بالتأثير فى التغييرات التى تتم داخل الكائن الحى ، وهكذا •• هذه الحركة الذاتية الديناميكية المتشابكة تسمى « التغير » ، وبدونها لا يمكن أن توجد الحياة كما نعرفها ، أى تصبح عدما • وهذه هى فرصتنا للتأثير المقصود فى تطوير ذواتنا وتطوير الآخرين •

٢ ــ **استمرار الحياة هو سبيلها** : وتشير كلمة « سبيل » الى ما يطرأ على الكائن الحى من تتابع الحركات المتشابكة التى تفضى الى تغيرات فى الكائن الحى وفى البيئة • وعلينا أن نتفهم علما وعملا هذا السبيل البيولوجى للحياة أو للنمو ، لأنه دائم أبدا ولا يمكن انكاره اذا قدر للحياة الاستمرار •

٣ ــ **الحياة برمتها لها اتجاه** : فلكل نشاط وجهة هو موليها ، أنى ببدأ وأنى ينته ، وقد تفقد البداية مجراها ولكن النهاية واقفة بالمرصاد حتى تنتهى الدورة •• وهذا الاتجاه وليد التفاعل السارى بين الكائن الحى والبيئة ، والتغيرات التى تحدث فى الكائن الحى والبيئة تتجه دائما نحو تحقيق الحياة ••

٤ ــ **تحقيق الذات أو توكيدها وترشيدها ليس له نهاية محددة فى سلم الارتقاء الصاعد** : فالفرد ككل لا يتوقف نموه عندما يكتمل نموه الجسمانى ، لأن الذات تشمل ما هو أكثر من الناحية الجسمية ، لأنهـــا ذات حية فريدة فى حالة صيرورة مستمرة يتقبلها صاحبها داخليا ويصوغها فى قالب فريد ويلاحظها الآخرون كشبكة مركبة من السلوك تميز فردا معينا بذاته عن بقية الآخرين مثلها تماما كبصمات الأصابع •

٥ — كل فرد يسعى دائما نحو حياة أفضل ، أو نحو الحياة الأفضل من وجهة نظره كما يراها هو : فالسلوك الانسانى فى جوهره الأصيل ما هو الا محاولة من جانب الفرد لاستغلال أحسن طاقة لديه فى الظروف المباشرة التى يقع تحت طائلها • والأشخاص الذين يواجهون موقفا واحدا يدركونه كل بحسب مفهومه وادراكه ، ولذلك ينتهجون مسالك مختلفة حيال الموقف الواحد • فلكل وجهة هو موليها ، ولكن الكل ينشدون الحياة الأفضل ، ولكنهم يختلفون فى تفسير الظروف القائمة ومعانيها بالنسبة للمستقبل •

٦ — لكى يتحرك كل فرد فى اتجاه واقعى فعال نحو الرشد المفضى الى حياة أحسن ، فعلى كل فرد أن يحسن فهم المعانى المكونة لذاته : فكل سلوك هادف ، وأى سلوك هو محاولة من الفرد لسد حاجاته واشباع ضروراته لتحقيق ذاته • وبعض هذه الحاجات والضرورات سطحية قشرية ، والبعض الآخر يتغلغل الى أغوار ذات الفرد عمقا وانتشارا • وسواء أكانت الحاجة سطحية أم عميقة فهو يتلقاهـا دائما بمدركاته ومعانيه وقيمه ، وكلها حصيلة خبراته المـاضية • فاذا وجدت ظروف لم تكن فى الحسبان وعاقت هذا الاشباع لحاجات الفرد اضطر لخلق معان جديدة يواجه بها الموقف الجديد ليعيد تنظيم خبراته ويعيد النظر فى مفهومه عن ذاته • وفى الظروف العادية للحياة يعدل كل فرد باستمرار مدركاته للمؤثرات الداخلية والخارجية ، فى حين يحتفظ بعلاقة مرنة مع بيئته • فعلى كل فرد أن يتعلم كيف ينمى معانيه ومفاهيمه الجديدة مع غيره فى مواقف للحياة مشتركة •

ان البينات الدالة على صحة هذه المبادىء الأساسية تؤيدها الخبرة ، وهى الدعامة الوحيدة التى عليها يرتكز كل درس وكل فحص ، وكل فرد يبرر سلوكه بخبرته هو ولا مورد له سواها والخبرة التى تقوم وتفحص وتتأكد بنتائجها الانفعالية والعقلية ، وينقبلها صاحبها والآخرون بقبول حسن ، أجدى وأقوم سبيلا من خبرة تأتى نتيجة عدوى انفعالية ، أو نزوة عارضة ، أو سلطة مفروضة لا تتيح فرصة للتقويم الايجابى(١) •

* * *

(١) توماس هوبكنز (ترجمة د/ محمد على العريان) ، **النفس المنبثقة** • (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠) ، ص ١٦ — ٢٩ •

نشأة الانسان وتطوره :

لقد جاءت آيات خلق الانسان كلها فى سياق العظة والاعتبار ، تلفت النظر الى أطوار الجنين البشرى التى يدركها الناس بأيسر ملاحظة وانتباه • ويبدو فى هذه الآيات العمد الواضح الى الاستدلال بها على القدرة الالهية على البعث :

« فلينظر الانسان مم خلق • خلق من ماء دافق • يخرج من بين الصلب والترائب • انه على رجعه لقادر » (الطارق : ٥ — ٨) •

« قتل الانسان ما أكفره • من أى شىء خلقه • من نطفة خلقه فقدره • ثم السبيل يسره • ثم أماته فأقبره • ثم اذا شاء أنشره » • (عبس : ١٧ — ٢٢)

« انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا • انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » •

(الانسان : ٢ ، ٣)

« أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين • وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم • قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » •

(يس : ٧٧ — ٧٩)

« أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا » •

(الكهف : ٣٧)

واذا كان الأسلوب العلمى فى علوم التشريح والأحياء ، لا يتعلق بمثل الكفر أو الشكر والايمان ، والخصومة والابتلاء والغرور •• فان طبيعة النص القرآنى من حيث هو كتاب هدى ودين ، تقتضى توجيه كل لفظ وآية الى مناط الهداية والاعتبار •

ولمثل هذه الغاية ، يحرص القرآن الكريم على تذكير الانسان بضعفه وهوانه ، فيلفته الى خلقه من تراب ، أو من طين ، أو من نطفة ، أو من علقة ثم من نطفة ، أو من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، كبحا لجماح غروره كيلا يتجاوز قدره فيطغى ويستكبر • والانسان مظنة أن يتمادى به الغرور والطغيان الى حد الكفر بخالقه ، والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبين :

« **خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين** » (النحل : ٤)

« **وخلق الانسان ضعيفا** » (النساء : ٢٨) .

« **أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا** » .
(مريم : ٦٧)

« **يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك** » (الانفطار : ٦ — ٨) .

ومن شأن الانسان أن ينسى ربه فى حال النعمة والقوة ، فأما اذا مسه الضر فانه يذكر خالقه فى ضراعة وابتهال :

« **واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه** » (يونس : ١٢) .

« **ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور** » (هود : ١٠) .

« **واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر كان يئوسا** » (الاسراء : ٨٣)

« **واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار** » (الزمر : ٨) .

« **كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى** » (العلق : ٦ ، ٧)

والانسان فى القرآن الكريم هو الذى يختص بالعلم والبيان :

« **علم الانسان ما لم يعلم** » (العلق : ٥) .

« **الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان** » .
(الرحمن : ١ — ٤)

وبما تهيأ له من وسائل التعقل والتبصر ، والتمييز بين الخير والشر ، وذلك كله من جوهر انسانيته ، وبها يحمل الأمانة ، ويحتمل تبعات التكليف ، ومسئولية الثواب والعقاب :

« **وأن ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى** » (النجم : ٣٩ — ٤١) .

« **أيحسب الانسان أن يترك سدى** » (القيامة : ٣٦) .

« **وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** » .
(الاسراء : ١٣ ، ١٤)

ثم ان الانسان هو الذى يحتمل الوصية ، وهموم المكابدة ، واقتحام العقبة ، لتحقيق وجوده الانسانى وأداء مسئوليته الاجتماعية :

« **ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير** » (لقمان : ١٤) .

« **لقد خلقنا الانسان فى كبد . أيحسب أن لن يقدر عليه أحد** » .
(البلد : ٤ ، ٥)

« **ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة** » (البلد : ٨ — ١٢) .

« **والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » (سورة العصر) .

كما أنه هو — الانسان — الذى يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية :

« **لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولا** » (الفرقان : ٢٩) .

« **ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد** » (سورة ق : ١٦) .

« **انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا** » (الانسان : ٢) .

ويظل الانسان ما عاش كادحا لمصيره ، محتملا هموم المكابدة وتجربة الابتلاء ، حتى يحين الأجل فيمضى :

« **يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه** » .
(الانشقاق : ٦)

فما أعجب قصة هذا الانسان فى رحلته العابرة بين الحياة والموت .. هل تعدو أن تكون فى مجملها الا كما وصفها البيان القرآنى(١) :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم • ثم رددناه أسفل سافلين • الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » •

(التين : ٤ — ٦)

* * *

انسانية الانسان :

الانسان فى القرآن الكريم ، غير البشر .. فاستقراء مواضع ورود « بشر » فى القرآن كله ، يؤذن بأن البشرية فيه هى هذه الآدمية المادية التى تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق • وفيها يلتقى بنو آدم جميعا على وجه المماثلة التى هى أتم المشابهة(٢) •

وبهذه الدلالة ، ورد لفظ البشر ، اسم جنس ، فى خمسة وثلاثين موضعا من القرآن الكريم ، منها خمسة وعشرون موضعا فى بشرية الرسل والأنبياء • مع النص على المماثلة ، فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية ، بينهم وبين سائر البشر :

« ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون • لاهية قلوبهم ، وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم ، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون • قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض ، وهو السميع العليم • بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون • ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون • وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون • وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » (الأنبياء : ٢ — ٨) •

« قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا

---

(١) عائشة عبد الرحمن : **القرآن وقضايا العصر** • (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٢) ، ص ٢١ — ٢٥ •

(٢) المرجع السابق • ص ١٥ .

تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين • قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » •
(ابراهيم : ١٠ ، ١١)

« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » •
(الكهف : ١١٠)

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » (المؤمنون : ٣٣)•

ان لفظ « الانسان » يلتقى مع الانس فى ملحظ مشترك من الدلالة اللغوية الأصلية للمادة على نقيض التوحش ، ثم ينفرد كل منهما بملحظ خاص يميزه عن الآخر •• فدلالة الانسية هى المتعينة بمقتضى استعمال القرآن الكريم للفظ الانس دائما فى مقابل الجن بما تعنى من توحش وخفاء • أما « الانسان » فليس مناط انسانيته ، فيما نستقرىء من آيات البيان المعجز ، مجرد كونه منتميا الى فصيلة الانس ، كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق •

« ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون » (الحجر : ٢٦)

« خلق الانسان من صلصال كالفخار » (الرحمن : ١٤) •

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (التين : ٤) •

« خلق الانسان • علمه البيان » (الرحمن : ٣ ، ٤)

وانما الانسانية فيها ارتقاء الى الدرجة التى تؤهله للخلافة فى الأرض واحتمال تبعات التكليف وأمانة الانسان ، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز ، مع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشر ، وفتنة الغرور بما يحس من قوته وطاقته ، وما يزدهيه من الشعور بقدره ومكانته فى الدرجة العليا من درجات التطور ومراتب الكائنات • بحيث ينسى فى نشوة زهوه وكبرياء غروره ، أنه المخلوق الضعيف الذى

يعبر رحلة الدنيا من عالم المجهول الى عالم الغيب ، على الجسر المفضى حتما الى حفرة من تراب ..

وعندما نمضى فى تدبر آيات القرآن عن هذا « الانسان » بوجه خاص ، فاننا نجتلى ملامح صورته وخصائص انسانيته التى يتميز بها عن مجرد كونه فردا من النوع البشرى أو من الانس .

فقد ورد لفظ « الانسان » فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة ، وعندما نتدبر سياقها جميعا فاننا نطمئن الى الدلالة المميزة للانسانية .

ونكتفى فى هذا المجال — بالاضافة الى ما سبق ذكره فى نشأة الانسان وتطوره — بسورة العلق ، أول ما نزل من الآيات البينات ، وفيها يمكن أن نجتلى الملامح العامة للانسان ، وقد تكرر ذكره فى هذه السورة الأولى ثلاث مرات :

الأولى : تلفت الى آية خلقه من علق .

والثانية : تشير الى اختصاصه بالعلم .

والثالثة : تحذر مما يتورط فيه من طغيان ، حين يتمادى به الغرور فيرى أنه استغنى عن خالقه :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم . كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى . ان الى ربك الرجعى » (العلق : ١ — ٨) .

هذه هى السمات المجملة للانسان ، كما بدت فى السورة الأولى من القرآن . ثم تتابعت الآيات من بعد ذلك تزيدها جلاء وبيانا ، بما تضيف اليها من اضاءة كاشفة لدقيق الملامح وخفى النوازع .

* * *

الانسان والمجتمع :

يركز الاسلام على بناء الفرد كنواة صالحة للجماعة من خلال الأسرة .. بناء الفرد بوصفه عاملا أساسيا فى تكوين الأسر التى تمثل الخلايا والوحدات الرئيسية للمجتمع ، والانسان عنده كائن جسدى وروحى معا . فبناء الانسان هو هدف كبير ، وأساس هذا البناء يقوم أصلا على أن يصبح الانسان شخصية سوية — سليمة — متزنة ، ويكون

فى الوقت ذاته لبنة فى بناء المجتمع • ويتحقق هذا البناء فى مجالات ثلاث هى : الجسم ، والعقل ، والروح • ويقوم ذلك أساسا على مبدأ التوافق بين الفردية والجماعية ، والمجتمع فى خدمة الفرد ، والفرد فى خدمة المجتمع ، وكلاهما متكاملان •

هذا التوازن بين الفرد والجماعة هو الذى شقيت الانسانية دون الوصول اليه •• فهى اما فردية مغرقة فى ذاتها أو جماعية جامدة تصب الأفراد فى قالب واحد من الميول والأهواء • وهذا يعنى أننا نجد المجتمع اما مغرقا فى الفردية ، بحيث يتحكم الفرد فى مصير المجتمع ويسخره لخدمة أغراضه الشخصية ، أو مغرقا فى الجماعية بحيث تذوب شخصية الفرد وتنصهر فى بوتقة الجماعة ويصبح ترسا فى عجلة الجماعة •• وحيث يقرر الاسلام التوازن بين الفرد والجماعة ، فهو يقيم « التكافل الاجتماعى » على أساس الاخوة ، وهو طراز من التعاطف الانسانى من شأنه أن يقضى على العنصرية والطبقية ويحرر العقيدة من التعصب • فمفهوم المجتمع فى الاسلام يقوم على أمرين ، الأول : التعادل بين ثنائية الفرد ذاته وبين الفرد والآخر ، والثانى : التوازن بين الفرد والمجتمع •

ويعطى الاسلام أهمية كبرى للانسان كفرد فى مجتمع ، ويؤكد حاجته الى التقدم المستمر ، وبذلك يحرر طاقاته الخلاقة كلها — فكرية وخلقية وعملية — لتنطلق فى خدمة تقدمه كانسان •

كذلك دفع الاسلام المجتمع كله فى طريق واحد دون السماح لعائق أن يقف فى وجه تقدمه ، ولا سيما القانون الطبقى الذى يحكم الانسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها وليس على أساس امكانياته وما يمكن أن يقدم للمجتمع من خدمات • كذلك فان كل فرد فى المجتمع الاسلامى يستحق الاحترام والتقدير بقدر ما يتحمل من مسئولية وبقدر ما يتحلى به من صفات طيبة •

والفرد فى الاسلام له حق وعليه واجب نحو نفسه ومجتمعه سواء بسواء • فهو يتأمل فرديا ، ويعمل اجتماعيا ، ويرعى نفسه ، ويكون مسئولا عن رعيته « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (حديث شريف) •

وبالاضافة الى ذلك فانه يشاور الجماعة فى الأمر ، واذا عزم توكل على الله :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين » (آل عمران : ١٥٩) .

فالشورى أصل أصيل وركن ركين فى الاسلام ، ولقد قيل : « ما خاب من استخار ولا ندم من استشار » . والقرآن على نهجه فى التشريع يشرع كبريات الأسس والقواعد ، ويترك التفاصيل للجماعة بحسب ظروف الزمان والمكان . فلكل دولة الحق فى أن تسن طريق الشورى وفق ظروفها وبيئتها ، والمهم أن يكون مبدأ الشورى موجودا خشية تسلط الفرد وتحكمه وطغيانه . وللفرد حق الكسب والتملك ، على أن يؤدى الزكاة والصدقات . وحينما تستدعيه حاجة المجتمع فانه يقدم على التضحية مؤمنا بأن التضحية حياة له وأن الهرب منها معناه أن يلقى بنفسه الى التهلكة(١) .

وفى ختام الحديث عن الفرد والمجتمع ، ينبغى أن نلفت النظر الى حقيقة هامة وهى : أنه مهما توفرت الامكانيات المادية ، فان هذا لا يغنى المجتمع عن اتباع هداية الله . يقول القرآن الكريم :

« ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ، اذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

(الأحقاف : ٢٦)

تخاطب هذه الآية العرب ، وفى مقدمتهم قريش ، وتعرض أمامهم صورة من صور التاريخ وهى صورة قوم عاد مع رسولهم هود .. فلقد أنعم الله على قوم عاد فى جنوب شبه الجزيرة العربية بأسباب القوة والازدهار ومظاهر الجاه .. فزادهم فى الخلق بسطة ، وأنعم عليهم بالعلم والثقافة والفن ، كما أنعم عليهم بخيرات الطبيعة وبالقوة البشرية الفنية ، فكان أن عمروا الأرض ، وتصوروا أنهم خالدون فى هذه الحياة ، فأساءوا استخدام امكانياتهم :

« واذا بطشتم بطشتم جبارين » (الشعراء : ١٣٠) .

كانت لهم المساكن التى يتحدون بها الدهر ، ولكنهم كانوا يمارسون

---

(١) أنور الجندى ، **مفاهيم العلوم الاجتماعية : النفس والأخلاق فى ضوء الاسلام** . (القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٧) ، ص ١٧٩ — ١٨٥ .

العبث والترف فى داخلها • وكانت لهم عيون المـاء الجارية ، والحدائق الغناء المثمرة ، والثروة الزراعية والنباتية • ولكنها غرتهم وخدعتهم فطغوا بها ، وعاثوا فى الأرض الفساد :

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة » (فصلت : ١٥) •

ولأن قوم عاد أساءوا استخدام نعم الله ، أذاقهم الله عذاب الخزى فى الحياة الدنيـا :

« فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسـات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون » •
(فصلت : ١٦)

وهود — وهو رسولهم — لم يرد منهم الا أن يصرفوا هذه النعم فى منفعة الانسان ، وليس فى البطش به ، أو فى العبث والفساد •• لم يرد منهم الا أن يؤمنوا بالله وحده ، وباليوم الآخر ، ولكنهم جحدوا بآيات ربهم :

« وتلك عاد ، جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد » (هود : ٥٩) •

يخاطب القرآن عرب قريش بعرض هذه القصة التاريخية عليهم •• واذا كانت عاد مع قوتها ومعرفتها أخزاها الله ، فهو سبحانه قادر على أن يصيب قريشا بخزيه اذا استمر موقفها من رسالة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، بما هو عليه من المعارضة والتحدى •

ان اتباع دين الله من شأنه أن يحفظ نعم الله من التبديد أو اساءة استخدامها ، كما يحفظ على المجتمع تماسكه وتعاونه وتآزره • فدين الله لا يطلب سوى استقامة السلوك ، والمودة فى العلاقات ، وتجنب الظلم والطغيان ، والمساواة فى الاعتبار البشرى ، ووضع الناس جميعا فى مسئولياتهم أمام الله وحده •• ان فى اتباع دين الله الضمان لبقاء نعم الله ، وسلامة الانسان فى عقله وتفكيره ، وعلمه ، وثقافته ، وفنه ، فى الأمة والمجتمع(١) •

* * *

---

(١) الدكتور محمد البهى ، **القرآن الكريم**). **يقول** • (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩) ، ص ١٦ ـ ١٨ .

الخلاصـــــة

خلق الله الكون وسخر كل ما فيه للانسان ، لأن الله هو الذى استدعى الانسان للوجود فلابد أن ييسر له وسائل الاستبقاء فى هذا الوجود • وذلك هو عطاء الربوبية ، لأن الرب هو المربى والسيد والمالك •• ومعنى المربى : أن يتعهد من يربيه الى أن يبلغ الكمال المرجو له ، لذلك كان من رحمة الله تعـــالى أن استجابت الأرض بكل ما فيها للانسان •

ان الانسان وسط الوجود المحيط به بمثابة « السيد » •• فالكل فى خدمته ، وهو لا يخدم أحدا • الكل مسخر له ، وهو غير مسخر لأحد •• وان كان — فى ظاهر الأمر — يخدم بعض المخلوقات ، فهى خدمة ظاهرة تعود له فى النهاية ، مثل رعايته للأرض والحيوان • وكل شىء يصب فى خدمته اما بالمباشرة أو بالواسطة •• فالانسان يأخذ من الجماد والنبات والحيوان مباشرة ، ويأخذ أيضا من كل هذه بالواسطة •

والوجود — على هذه الصورة — يمكن تقسيمه الى سيد ومسود •• خادم ومخدوم • والانسان لا يستطيع الادعاء أنه صنع هذه الأشياء المسودة لتخدمه ، لأن فيها أمور كثيرة لا تدخل تحت طاقته ولا قبل له بها ، وهى تؤدى له خدمات قبل أن يوجد له عقل يفكر ، وطاقة تفعل ••

لابد اذن أن يبحث الانسان عن قوة أكبر منه ومن المســودات جعلتها جميعا مسخرة له •• فيبحث عن « سيد » له هو الآخر • ان لم يفعل ذلك ، أصبح تافها ، لأن المخلوقات لها مهمة فيما عداه •• لا مهمة له • كل هذا التسخير •• يجب أن يدفع الانسان للبحث بعقله عن المهيمن على الكون ، وهذا البحث هو بداية الاستدلال • وبالاستقراء نجد أن الكون مسخر لخدمة الانسان فهو الغاية ، وأيضا الوسيلة : لأنه يتفاعل مع الموجودات لتعطيه نتاجها فى النهاية(١) •

الانسان هو أكرم شىء فى هذا الوجود ، وهو مكرم عند الله ابتداء من آدم عليه السلام ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها • والقرآن

---

(١) محمد متولى الشعراوى ، **١٧ قضية فى ميزان الاسلام** • (القاهرة : المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٧٧) ، ص ٥٤ ، ٥٥ •

الكريم يشير الى كرامة الانسان بقوله : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » (الاسراء : ٧٠) .

لقد كرم الله الانسان كانسان من غير اعتبار آخر من دين أو لغة أو قومية .. فالناس جميعا متساوون كأسنان المشط ، أولاد أب واحد وأم واحدة :

« **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** » (النساء : ١) .

« **يا أيها الناس انا خلقنـــاكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** » (الحجرات : ١٣) .

ولقد خلق الله الانسان فى أحسن تقويم ، وسخر لهذا الانسان ما فى السموات وما فى الأرض :

« **لقد خلقنـــا الانسان فى أحسن تقويم** » (التين : ٤) .

« **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا** » (النحل : ١٤)

« **وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليـــل والنهار** » .
(ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣)

واذا كان الله قد خلق الانســـان فى أحسن تقويم وكرمه بصـــفته انسانا ، فان الانسان اذا انحرف عن الحق وتنكر لخالقه واتبع سبيل الغواية ، حينئذ يسقط الى أسفل سافلين وينحط تحت درجة الحيوان :

« **ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون** » .
(الأنفال : ٥٥ ، ٥٦)

وبعد .. لقد احترم الاسلام كرامة الانسان ، وجعل الحجة والبرهان والاقتناع سبيل الايمان ، وترك للانسان حرية الاختيار ، وأعلن دستوره الخـــالد بألا اكراه فى الدين ، وحدد مهمة الرسول بالبلاغ والتذكير :

« **وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » .
(الكهف : ٢٩)

« **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** » (البقرة : ٢٥٦)

« **ان عليك الا البلاغ** » (الشورى : ٤٨) .

« **فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . الا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر . ان الينا ايابهم . ثم ان علينا حسابهم** » (الغاشية : ٢١ ــ ٢٦) .

« ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء فيهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك »(١) ..
(رواه أبو داوود)

* * *

(١) عز الدين بليق ، **منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين** . (بيروت : دار الفتح ، ١٩٧٨) ، ص ١١٤ .